http://virtuelcampus.univ-msila.dz/leltp/?=212

المجلّد: 01 العدد: 02 (2021) ص249-266

الشّعر الشّعبي في منطقة بوسعادة: نماذج من شعر الوصف

Folk Poetry in Bousaada Region: Some Cases of Descriptive Poetry

د. نجاح أوكالي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة–الجزائر

nadjah.oukali@univ-msila.dz

د. عبد الحفيظ جوبر

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة–الجزائر

Abdelhafid.djoubar@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال: 2021/10/15

تاريخ القَبول: 2021/10/28

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الشعر الشعبي
- ✓ الوصف
- ✓ منطقة بوسعادة

الملخص:

رصدت الدراسة الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة ، وتناولت نماذج من شعر الوصف باعتباره من أكثر الأغراض شيوعا ، ولا يختلف اثنان حول مكانة الشعر الشعبي في الحياة المجتمعية من حيث دوره ، ومن حيث القضايا التي طرحها ويطرحها، فالشعر الشعبي مصدر أساسي للمؤرخ الاجتماعي، ومن ثم يعتبر بمثابة الوثيقة التاريخية ،ومع أنها تختلف عن الوثيقة التاريخية المحصة تمحيصا علميا، إلا أنها تتفق معها في المعالم العامة، بل قد تتفوق عليها في الإضافة النوعية التي يحتاجها المؤرخ، إن انفتاح الخيال لدى الشعراء الشعبيين من أجل التعبير عن أحوالهم الشعورية والوجدانية، و كذا طبيعة المنطقة الجميلة، عوامل ساهمت في تزويدهم بالمفردات التي ساعدت في تشكيل صورهم الفنية ، هذه المفردات التي دخلت شتى فنون الشعر ، وحملت رموزا خاصة في كل لون منه ، كما رصدت الدراسة الدور الوظيفي الذي أدته الطبيعة في تشكيل الصورة ، وخلع الصفات البشرية على هذه الطبيعة الصامتة، مطلقة العنان للتذوق الذي أرشدنا إلى الاستشهاد بشعر بعض الشعراء الشعبيين في المنطقة وأجودهم قريحة ، ما جعل البحث غنيا بالشواهد .

Abstract:

Article info

The study monitors folk poetry in the Bousaada area, and deals with descriptive poetry as a model as one of the most common purposes, and no two differ about the status of folk poetry in community life in terms of its role, and in terms of the issues it raises and raises. The historical document, although it differs from the historical document scrutinized scientifically, yet it agrees with it in general features, and may even surpass it in the qualitative addition that the historian needs, The openness of imagination among popular poets in order to express their emotional and emotional conditions, as well as the nature of the beautiful region, factors that contributed to providing them with descriptive material and vocabulary that helped form their artistic images. This vocabulary entered the various arts of poetry, and carried special symbols in each color of it. The study also monitored the functional role played by nature in shaping the image, and depriving human qualities of this silent nature, unleashing the taste that guided us to cite the poetry of some of the popular poets in the region, the best of them being the most elegant, which made the research rich in evidence.

Received **:**
15/10/2021
Accepted **:**
28/10/2021

Keywords:

- ✓ *Popular poetry*
- ✓ *Description*
- ✓ *Bousaada area*

مقدمة: شهدت منطقة بوسعادة بروز العديد من الشعراء الذين راحوا يسجلون بنصوصهم مراحل الحياة، ويخلدون مآثر المجتمع، ويكشفون عن آمال وطموحات أبنائه.

والشعر الشعبي فن من فنون هذا التعبير الشعبي، وهو على قدر كبير من الأهمية، لأنه ليس مجرد إبداعات فنية عابرة، بل هو مرآة عاكسة للمجتمع بصفة عامة، وللفرد على بصفة خاصة، وبالتالي هو عمل فني خالص من روح الشعب، يعبر عن أفكاره وأمله في مدار سيرورة الحياة اليومية، ويستحق أن يخصّص موضوعا للدراسة والتعمق فيه، فيما يحيل من الأساليب والمضامين التي لها دورها في حياة الفرد والمجتمع.

لذلك نجد الكثير من الدراسات الأدبية الحديثة لمجالات الأدب الشعبي وفنونه المختلفة . بعد أن ظل بعيدا عن اهتماماتها فترة طويلة من عمر الأدب العربي ذاته . أخذت بدورها تبحث في وجدان الأمة و عواطفها و أحاسيسها، محاولة الوصول إلى طبيعة التعبير في الأدب الشعبي، حيث أخذت تصنف فنونه و تحاول الكشف عن خصائص كل فن منها على حدى، مستعينة بأحدث ما ظهر من دراسات في علم الفلكلور.

ولعل هدفنا الأساسي في هذه الدراسة، هو التعرف على رؤية بعض مشاهير و شعراء الشعر الشعبي، وما بذلوا من جهد و عطاء في شتى مجالات الحياة الثقافية

الفكرية، وحتى نعرّف القارئ الذي لم تتح له فرصة الدراسة للاطلاع على الشعر الشعبي التي تمكنه من الحكم على الشعر الشعبي، فلا يحمل الشاعر الشعبي ما ليس في استطاعته، وهذا ما قادنا لطرح التساؤل حول كيفية انعكاس الطبيعة على نفسية شعرائنا؟ وكيف أظهرت جوانيتهم وترجمت أحاسيسهم؟ وكيف وظف شعراؤنا مفرداتهم الطبيعية بانتقالهم من الأشياء الحسية إلى المعنوية فيما يرونه من مشاهد يسجلونها في لوحاتهم الشعرية؟

هذا ما سنحاول الاجابة عنه من خلال الحديث عن وصف الطبيعة بكل مكوناتها، هذه الطبيعة التي «كانت ولازالت مصدرا أساسيا للإبداع الشعري، فهي تمثل خلفية حية باستمرار في وعي الشاعر، فتبدو كما لو أن التوتر الذي يبدو عليها هو نفسه ما في ذات الشاعر أو العكس...»[1].

و بما أن موضوع الشعر يمكن أن يكون موقفا مفرحا أو مفجعا-ذلك أن حياة النشء نفسها تتقلب بين هذه المواقف التي تعالج أحوال الوضع الإنساني-فإننا نجد أغلب شعراء منطقة بوسعادة لا يخرجون عن منحى تنوع الأغراض، و من بين الأغراض التي اهتموا بها غرض الوصف الذي يعد من أهم الأغراض الشعرية و أكثرها حظا من عناية الشعراء، فالشعر في عمومه لا يخلو من الوصف، وفي هذا يقول صاحب العمدة: «الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف و لا سبيل إلى حصره و استقصائه»[2].

ولهذا ينبغي في جميع الأغراض اعتماد الوصف، الذي بدونه لا تستقيم الصورة الشعرية، فهو في ذكر المحاسن غزل، وفي ذكر الفضائل مديح، وفي التعبير عن الحزن رثاء، وفي ذكر الحرب حماسة، وفي الحديث عن النسب فخر...

وتعلق الشعراء بالطبيعة بقسميها :الصامت والمتحرك، ونقلوا منها مشاهد زاهية تهتز لها النفوس، فوصفوا الرياض والبساتين بأزهارها وأطيارها، ودخلوا عالم الخيول فوصفوا أنواعها ومحاسنها كما أسمعونا خرير المياه المتدفقة من ينابيعها.

لقد وجد الشعراء في أحضانها فضاء رحبا للتعبير عن أنفسهم فأودعوها عصارة قلوبهم، وعبّروا من خلالها عن آلامهم ومطامحهم في ذات الوقت، فجاءت صورة حية ناطقة تعكس همومهم في صدق ووضوح.

وينبغي الإشارة قبل الخوض في وصفها عند شعراء منطقة سيدي عامر ببوسعادة أن نذكر أن هناك عدة اتجاهات ومواقف للشعراء منها:

- وقوف بعضهم عند حدود المشاهدة الخارجية فيكتفي بالتصوير الفوتوغرافي.

- هناك من يشرك الطبيعة معه في أحاسيسه لكنه لا يذوب فيها ، وهذا الوصف ما قال عنه السيد قطب : « الطبيعة في الشعر العربي قد تحيا و تدب و يحس الشاعر بما يضطرب فيها من حياة و يلحظ خلجاتها ، و يحصي بنبضاتها ، ولكنه لا يندمج في هذه الطبيعة ، و لا يحس أنه شخص من شخوصها ، وأنه حركة من حركاتها ، وأنه منها و إليها وأحاسيسه موصولة بأحاسيسها»[3].

- صنف ثالث يندمج مع الطبيعة اندماجا كليا ويخلع مشاعره عليها متنقلا إلى ما أسماه علماء الجمال ظاهرة تغلغل الأنا في ثنايا الأشياء، وفقدان الشعور بالشخصية في هذه الحال يصبح الشاعر فنانا لا مصورا فوتوغرافيا.

أما شعراء منطقة سيدي عامر فلهم ولع كبير بالطبيعة الصامتة و المتحركة، إذ نقلوا منها و عنها مشاهد تهتز لها النفوس ، فوصفوا البساتين بأزهارها و أشجارها ، ودخلوا عالم الحيوان فوصفوا خيلها، كما أصاخوا للرعد فوصفوه و حدقوا في السماء بغيومها و أمطارها فتراءى لهم غيثها بكاء يحي الأرض بعد موتها ، دون أن ينسوا النخيل، لأن المنطقة بربوعها المختلفة زاهرة ببساتينها و وديانها و رمالها و جوها المنعش و طبيعتها الخلابة ، فدفعتهم لإبراز هذه الأحاسيس في صورة شعرية رائعة ، كما أنهم لم ينسوا أن يصفوا ما يجول في خاطرهم و يصوروه أحسن تصوير.

1 - وصف الخيل: لقد أحب العرب الخيل أكثر من غيرهم و احتلت عندهم مكانا مرموقا، يقول نوري حمدي القيسي: «احتلت الخيل مكانة التجلية و الاحترام، و لم أجد أمة اعترفت للخيل بالفضل و خصتها بالتكريم وآثرتها على الأهل والأولاد، و وضعت لها أنسابا حتى لا تتهجن أو تفقد أصالتها مثل العرب»[4] .

و سنحاول تقديم بعض من الأشعار في وصف الخيل، والتي تجمع الكثير من المعاني، و من بين الشعراء الذين قالوا ووصفوا فأجادوا الوصف الشاعر "عميرة بن قطاف ، الذي يقول :

و امحاسن واعياد في شاو المرحول و اسروجا مجبود براڤ يشالو[5]
لا فزو خطيف طار مْعَ لوعار والفرسان طيور عنهم يتحالو

فقد افتتح الشاعر قصيدته مذكرا بما يكون على ظهر الحصان من سرج وفارس مثل الطير، وما يتميز به من سرعة عند الانطلاق ، ليأتي بعدها للحديث عن ألوان الخيل التي أبدع فيها الله عز وجل وحببها إلى عبده وذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «الخيل معقود في نواصيها الخير».

يقول الشاعر:

أحمرْ بن نعمان في شاو الڤومان في عشرة يبرير كل لاح أخبالو[6]

تلڤى لبيض لون برج نتاع سحاب ولا ثلج يبان عند روس أجبالو

ولاّ لكحل ريش الغربه لا تنساش عاجب ڤاع الناس واعليه يسالو

ولاّ لـدهم بابور يبني علبنيان دخانـو ڤطعات زادو يكحالو

لقد ذكر الشاعر الألوان المشهورة التي تميّز لخيل . ولو أنها كثيرة . وحاول أن يلحقها بتشبيه مظهر من مظاهر الطبيعة، إدراكا منه لأهميته في الإبانة عن المعنى، وإظهاره وتوضيحه وتأكيده، وبه يحقق صورة فنية جميلة.

ففي البيت الأول يشبه الشاعر لون الخيل بلون النعمان الأحمر الجميل مشيرا إلى سرعته (في شاو الڤومان)، ثم ينتقل بعدها إلى الحديث عن الخيول ذات اللون الأبيض فيشبهها ببرج السحاب في السماء الزرقاء الصافية ، ونشير هنا إلى أن الشاعر في هذا البيت حاول أن يكون دقيقا بحيث أدرك بأن هذا النوع من البياض قد يتفاوت لذلك حرص على توضيح الصورة اللونية ، و أراد بتشبيه آخر و هو بياض الثلج ، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل لماذا ضاعف الشاعر التشبيه ؟ أهي طريقة متبعة، أم هو عدم الثقة في الصورة الأولى؟ أم أن المقصود تقوية الصورة؟ لأن التضعيف يؤتى به للتأكيد على الشيء.

وفي ضوء هذا يمكن تفسير الصورة التشبيهية في الشطرين إلى أن صاحبها عنّى بها الغاية الجمالية، لأن التشبيه المركب يعد أكثر الأنواع دلالة على جمالية الصورة، فالشاعر قال في المرة الأولى (لون برج نتاع سحاب) وفي الثانية قال (ولاّ ثلج يبان...).

وكان يكفيه ذكر أحدهما، وهذا ما يجعلنا نقول إن الشاعر لم يطلب التشبيه لذاته بل كان وسيلة يعكس من خلاله ما تؤمن به نفسه من جمال.

ولم يكتف بذكر تلك الصفات فقط بل تعدى إلى الحديث عن نوع آخر من الخيل، إنه الحصان الأسود سواد ريش الغربان الذي بجماله يتحاكى الناس، وفي هذا دلالة كبيرة على حب العرب للخيل، خاتما أبياته بالحديث عن الخيول ذات اللون الأدهم والذي بدوره يميل إلى السواد، سواد دخان البابور، في كل هذه التشبيهات حاول الشاعر أن يعبّر عن عاطفة الحب والإعجاب وتعلق أهل البادية بالخيل.

ولا نغادر وصف الخيل إلا بعد أن نشير إلى ما قاله الشاعر قويدر يخلف في وصفه لحصانه:

أحمر بدكونه يشبه للمرجان زين الطلة كي نشوفو يحلالي
اسبي الرقبة أوتابعو شبه القطران وابيوضة خنشوش جبهة و ارجالي[7]
اعريض الحوافر والمناكب والمسلان اعريض البطن الجوف فالشكل هلالي[8]
اعريض الرقبة اطويلها صغير لوذان أخفيف الشعر اظريف فالوثب أغزالي

قدم الشاعر في هذه الأبيات جملة من الأوصاف، فهو أحمر اللون كالمرجان، طلته بهية تبعث السرور، أما شعر الذيل والرقبة كالقطران، والأنف أبيض مثل الجبهة، وحوافر الأرجل عريضة، والخصر والبطن والجوف هلالي الشكل، كما أن له رقبة عريضة وطويلة، أذناه صغيرتان وشعره خفيف وسيره كالغزال.

لقد أضفى الشاعر على حصانه ألطف الملامح والهيئات التي امتد إليها خياله واتسعتها خبرته الشخصية. ولا يقف عند هذا بل راح الشاعر يصف ما كان يتخذ زينة للفرس مثل السرج وغيره، وفي هذا يقول:

ومسامير نشايب أطراف تشوف ما تلطمش الدم وتروم الضربات
وجلالو ڤربي و هو فيه ملفف و مغطي عالشمس و رياح ومطرات
يصلح سرج عليه لا كان مرفف ربطة معذر في الربيع على سيلات

أعشاب المجبود ولجام مغلف والطرحة تعجب من ألوان القسطات

أركابو فضه لحد وين ڤصف تركيبه وشمور وتماڤ الخصلات

يصور الشاعر هنا عادات الناس في عنايتهم بالفرس من اتخاذ المسامير في رجله مثلا، وسرج في حالة الجري، مع غطاء يوضع تحت هذا السرج يسمى " الطرحة " وكذا ركاب الفضة ... إلى غير ذلك من المقتنيات التي تخص الفرس، وهذا ما يدل على المكانة المتميزة التي يختص بها هذا الحيوان عند الناس في ذلك الوقت، وعموما تعتبر هذه الأبيات بمثابة وثيقة انثروبولوجية اجتماعية تمثل جوانب من الحياة الاجتماعية لسكان المنطقة.

وما ينبغي أن نشير إليه هو أن الشاعر الشعبي في منطقة سيدي عامر مرتبط أشد الارتباط بخيله، فالخيل تمثل عنده الشجاعة والفروسية والعزة والإباء.

والشاعر في وصفه للخيل يتنقل بين الصفات المادية و الصفات المعنوية، مستوعبا جل عناصر الموضوع ومثل هذا الوصف كان محمودا عند القدماء ،وفي هذا يقول أبو هلال العسكري : « ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور لك الموصوف فتراه أمام عينيك »[9] ، و المعنى ذاته نجده عند قدامة بن جعفر الذي يقول :« الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات ، و لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي هي الموصوف مركب منها »[10] .

كما نلاحظ اعتماد الشاعر للتشابيه المركبة للدلالة على جمالية الصورة من ذلك قوله (لبيض ... برج .... ولا ثلج...)، كون الشاعر الشعبي خبير بمظاهر الطبيعة وأسرارها، فهو أثناء الوصف يقف عند الشيء متأملا مدركا ما فيه من انسجام وتباين أجزائه، ودقة صورته اللونية تعكس ثقافته في هذا المجال (أحمر بن نعمان ... ريش قربه...)، كما نجده في حديثه عن ألوان الخيل يعبر عن عاطفة الحب والإعجاب لهذا الحيوان. كما حاول الشاعر أن يوظف بعض الصور الشعرية والوسائل اللغوية للتعبير عن الفكرة أولا والابتعاد عن المباشرة والتقريرية ثانيا.

2 - **وصف النخيل:** تكثر أشجار النخيل في البيئة الصحراوية، و هي من أجمل الأشجار الموجودة في العالم، و الشاعر الشعبي بطبيعة الحال ابن بيئته، فقد ارتبط أشد الارتباط بهذا

النوع من الأشجار دون غيرها لأنها رمز للشموخ والمقاومة ، و ظهر ارتباط العرب بها منذ القديم ، يقول بعض الدارسين : « و إذا كان قوم تصح نسبتهم إلى شجر النخيل فهم العرب ، و لا نستغرب أن يعتبروها أختا لآدم وعمة لهم »[11].

أما في منطقة سيدي عامر التي لا تبعد عن مدينة بوسعادة العامرة بهذا النوع من الأشجار، لا نستغرب أن نجد الكثير من شعرائهم قد اهتموا بهذا النوع فأعجبوا وتغنوا به، ومن الشعراء الذين قالوا في النخيل الشاعر" عامر أم هاني " إذ يقول:

يا نخلة ساكنة بر الأرياح مكترك بوصاف تشبه للعالم
انت في وسط أصحاري زينك لاح واحييت امكان من قلبك حاطم[12]
فزيت من ذا أرمل زدتيه أشباح فالزين اعجبتيه وصبّحلك رايم[13]
انت كي أعفستيه أتقدر وصحاح هو كل أكرش فيك لكراعك حاكم[14]
من يفصلك عالرمل صيتو جاح كي حواء مقرون اسمها بآدم[15]

هذه الأبيات غاية في الوصف، أبان الشاعر من خلالها عن أصل النخلة التي مكانها الصحراء -التي تحيا إن سكنها النخيل -فهي تشكل مع الرمل أروع الصور، لذلك أحبها وعشقها وأسكنها في جنباته، قد زادته قوة وصلابة فأصبحا كالتوأم الذي لا يمكن الفصل بينهما.

وكي يبين لنا الوصف ويرسم لنا صورة جميلة انتقل إلى الحديث عن بعض خصائص النخيل فيقول:

واسكنتِ جو السماء قصد التفساح فيه راسك مرفوع متعلي دايم
أجريدك ممشوط في جنبك دلواح ولي في قطايتك واقف قايم[16]
طول العام بخضرتو دايم فحفاح ضاحك عالفصول من راح أقادم[17]
ما هلكو برد اشتا وجليدو طايح ما حرقوا ذا الصيف في صهد الصمايم[18]

متحمل غبار يعمى والارياح وذا جار أعليه لحراب فاهم

ما تحسبش انسل وجريدو طاح يتمايح بساسية بيه إيقاوم[19]

عبرت الأبيات عن صورة جميلة، جّسد فيها الشاعر بعض خصائص النخيل التي تسكن جو السماء، مرفوعة الرأس، أما جريدها فممشوط يتدلى على الأطراف، بينما يبقى بعضه قائما، والى جانب ذلك فهو دائم الخضرة طول السنة غير مكترث ببرد الشتاء وجليده، ولا بحرارة الصيف، . متحملا الغبار والرياح الشديدة القوية.

فللشاعر قدرة كبيرة في إنتاج صور عميقة تتحرك وتدب فيها الحياة، وهذا من خلال الاستعارات في قوله: «أنت كي اعفستيه . كي أكرش فيك» فلقد نفث فيها الحياة واستعار لها خصائص الأحياء وألحقها بالنخلة، ما يدل على نمو إحساس الشاعر الشعبي بالطبيعة وحبه لها وهيامه بها.

والشاعر الشعبي . في الكثير من القصائد . يحاول تشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط، وتجلى ذلك في قوله «ضاحك عالفصول...».

ولقد حاول الشاعر أن يقوي الصورة باعتماده نظام التقابل بين الألفاظ كقوله « راح أقادم » فهذا التضاد يزيد في المعنى قوة و تأكيدا ، وقد أجاد الوصف بما انتقى من المعاني و الألفاظ انتقاء محكما، فنراه يذكر اللفظ و يدعمه بآخر قصد تقوية المعنى كقوله " واقف قايم " " طول العام دايم " ،أضف إلى ذلك أنه استخدم عبارات دقيقة تنقل المعنى كاملا غير مجزوء، و من ذلك قوله " برد اشتا" " في صهد اصمايم " فلو أنه اكتفى بكلمتي " برد . صهد " لما أدت المعنى كاملا ،فدرجات البرد و الحر تختلف من فصل لآخر ،كما تتفاوت قساوتها و حرارتها ، لذا أضاف كلمتي " اشتا . اصمايم " لتكتمل الصورة ، وتبعث في ذات المتلقي المعنى المراد بدقة .

اعتماد الصورة التي تمثلها النخلة في نظر الشاعر الشعبي ومن ورائه الجمهور وذلك في قوله " راسك مرفوع متعلي دايم " التي تؤدي معنى الشموخ، وذكر خصائصها من عدم تأثرها بالبرد والجليد والحرارة وتحمل الغبار والرياح الشديدة، والتي تمثل المقاومة، وبين الشموخ والمقاومة صورة وصفية في غاية الروعة والجمال

تمثلت في تخيّل الجريد شَعراً ممشوطا يتدلى على جذع النخلة والقسم العلوي منه واقف قائم.

كما اعتمد الشاعر لغة بسيطة خالية من الألفاظ الغريبة عن أبناء البيئة، ما جعل شعره صادق العاطفة غزير المحتوى.

3- وصف القمر: لقد رأى شاعرنا أن ما يزيد في جمال الصحراء بعد النخيل . خاصة ليلها . هو ضوء القمر، لذلك خصّه ببعض الأبيات القصيرة التي يقول فيها:

قمر الليل إذا جا عنّي من ثم هو زهو البال نشتي طلعاتو[20]

ووَنسني بيه للغربة يفهم نحكيلو لمحان عنّي وش فاتو[21]

أنبات أنحدّث فيه هو يتبسم وسلامي يدّيه وقلبي هاتو

ها هو القمر بطلوعه يبعث الانشراح والسرور في قلب ونفس الشاعر، فهو مؤنس الغريب وصدره الذي يبوح بالأسرار ليلا علّه يفرّج كربته، من خلال هذه الأبيات المعبرة عن نفس حزينة تتمنى الفرج، وعليه فإن الشاعر الشعبي يربط عادة القمر بالأمل والفرج لارتباط النور به.

كما اعتمد التشخيص حين جعل القمر إنسانا يتكلم ويبتسم، إذ ألبسه البعد الإنساني، لأن تجربة الشاعر . في هذا المجال . استمدت نبض صوّرها من عناصر الطبيعة التي تدخل في الخلق الفني حيث القمر والشمس والنخل.

4- وصف المسجد: مثلما اهتم الشعراء بالطبيعة الحية والصامتة، لم يهملوا الطبيعة المصنوعة -وإن كانت قليلة -فها هو الشاعر من خلال الأبيات التالية يحاول أن ينقل صورة عامة في وصف مسجد بمكة المكرمة، فيقول:

سبع أصمع باينة للبعد أطل سبع وأربعين عديت أبوابو

من باب ابراهيم و تاني مدخل ونطحني ذا البيت مرفوع أحجابو

ثوب كي متحوف فيلون لكحل آيات القرآن ضوّات أجنابو

وصف الشاعر في هذه القصيدة المسجد وصفا خارجيا دون الالتفات إلى ما في صميم هذا الشكل من علاقات خفية و أبعاد فنية، و وفق حدود ما يرى دون أن

يتجاوز إلى ما يتراءى و على هذا جاءت الصورة الشعرية صورة نقلية لا إبداعية، ومعلوم أن «الصورة النقلية تدل على أسلوب الإنسان البدائي في التفكير، الأسلوب الذي لا يعير اهتماما لطبيعة الأشياء الداخلية بل يرى أن الجوهر فيها هو لما ترصده العين و تتمكن من التقاطه»[22].

كما أن القصيدة تميل إلى الوضوح، و تنأى صورها بالشعر عن الإيحاء، لهذا جاء تعبيرها عن معنى عقلي ظاهر، يقول أحد الباحثين: «العقل يفسد الرؤية الشعرية»[23].

وما نلمسه أيضا أنه لا عمق في الأداء الفني الذي يحرك فينا عناصر الإحساس بالجمال وكأن الهدف هو الإبانة والشرح.

عموما فإن القصائد من هذا النمط موجودة بكثرة، وما ميّز صورها هو اللاتلقائية في المعاني واللا حرارة في العاطفة.

لقد كانت الطبيعة وعناصر الكون ملهمة الشعراء وباعثة الأجواء الشعرية، ولم يشذ الشاعر الشعبي عن ذلك، فأغلب الشعراء الشعبيين عاشوا جانبا من حياتهم بين أحضان الطبيعة وفي أجواء البادية، ما تأتى لهم أن ينعموا بصفائها ورقة نسيمها، حيث التأمل برفق وتمعن لهذه الطبيعة، وتفاعل عناصرها، ولا يخفى ما لذلك من أهمية في إلهام الصور، إذ كانت قريحة الشاعر الفنان في الطبيعة بكل ما تنطوي عليه من أشياء وجزئيات وظواهر، هي المصدر الأساسي لإمداد الشاعر بمكوّنات الصورة.

قد ولع الشعراء الشعبيون بإسقاط حالات الطبيعة وظواهرها على مواقفهم وتجاربهم الشعورية بإنتاج صور موحية تحدث التفاعل لدى القارئ، فهذا الشاعر " مقدم مختار " يوجد تشابها وفق رؤيته الشعرية، بين أيام الدنيا المتقابلة فرحا وترحا، وبين مظهر من مظاهر الطبيعة وهو الحرارة والبرودة، ليعبر عن ثنائية الشدة والرخاء في الدنيا قائلا:

يوم البرد يقابلو يوم الحمان يوم الزهو يقابلو يوم اللاذية

يوم الشدة والرخا لكان أقران والخير من غير ربي عالم بيه

إبكي ياعيني على النهار اللي كان يا مسعد ناس المحبة سلفو فيه

منح الشاعر مظاهر الطبيعة التي رأى تقلب أحولها و تعدد نزواتها، ليسقط هذا التقابل على أحوال الأيام المتقلّبة ، بل استطاع أن يربط ذلك بذاته فلاحظنا عاطفة الشاعر حاضرة ، كما أن الصورة لم تؤد دورا تصويريا فحسب ، بل أدت أيضا إلى إثارة حالة عاطفية داخلنا، لأننا نعاني في الحقيقة ما يعانيه الشاعر من تغير الزمان و تردّيه، و نحنّ إلى من يحرك فينا هذه الأحاسيس ، وفي هذا السياق يقول (ماكليش) صاحب كتاب (الشعر و التجربة): "إنني أعتقد ، وقد أكون مبالغا بأن الصورة في القصيدة تتضمن العاطفة ، و هذه الطريقة تثير حالة عاطفة فائقة للعادة".[24]

أما الشاعر عبد الرحمن بن عيسى فقد وصف لنا الدنيا في قالب نصح بعدم السعي وراءها فهي لا تساوي شيئا، فيقول:

الدنيا رآها اصعيبة دونية واحذر بلاك تخدعك ليها وجهين[25]

تضحلك واطمعك بالامنية وتمنحك وتجرّب مقصودك وين

تظهر لك الاحسان رآها موذية وهاذا هو طبعها لعبت بُخرين[26]

غرت ناس رماتهم في هاوية بعد ما كانو عزاز ومشهورين

تتغير ما بين صبحة وعشية وتتقلب كي الريح ما تعرفش امنين[27]

فقد صور الدنيا في هذه الأبيات على أنها كائن حي (إنسان) من طبعه الخداع والضحك وإظهار الإحسان والإيذاء في الوقت نفسه، بكلامه يغتر الناس، فيصلون إلى ما لا يحمد عقباه، محذرا في الأخير من الدنيا وتقلباتها، فهي كالريح لا يؤمن جانبها.

لم يخرج الشاعر عن المألوف العام فقد اعتمد في هذا الوصف والتصوير التشبيه في قوله: " كي اريح " والاستعارات (تضحكلك . رآها موذية) للتعبير عن التجربة الشعورية التي أذاقته المر في هذه الحياة التي تعطي ثم تأخذ.

أما الشاعر أحمد وليد بن القبي، فقد أورد الكثير من الوصف المبثوث في قصائده الغزلية و الرثائية، ولم يتوان في أن يستمد صوره . عند الوصف . من الطبيعة لوجود التناسق بين الجمال الإنساني و الجمال الطبيعي لأن «الجماليات الكونية شبيهة بنفس الإنسان أو نفسه شبيهة لها»[28] .

كما رسم لنا صورا جميلة وصف فيها جمال محبوبته مازجا إياه بصور الطبيعة إذ يقول:

مثلك وردة تايقة في وسط اجنان مسقية بمياه تتقانا[29]

وهذا الوردة فكرتني في لمحان اتفكرت اغزال واحد واعنانا[30]

فالشاعر عند وصفه لفتاته البدوية، استمد صوره من الطبيعة وذلك من خلال تشبيهها بالوردة والغزال وهذان رمزان قديمان قِدم الشعر العربي.

ويستمر الشاعر في وصف حبيبته مستمدا دائما الصورة من الطبيعة فيقول:

هي نخلة في البلاد القبلية دربات عراجين مكثرهم بثمار

دقلتهم حرّه اللي يقولوا هيَّ تزّاقر عنها الناس اللّي تجار[31]

لقد صور الشاعر محبوبته بالنخلة تصويرا له دلالة خاصة، فالنخلة تعكس الشموخ والأنفة والاستقامة من جهة، وتعكس من جهة أخرى البهاء والجمال من خلال ما يتراءى للناظر من أول وهلة.

فالشاعر الشعبي ألف مثل هذا الوصف، فالنساء عنده: «نخلات طوال ممتلئة سعفا وثمرا نظيراً... والنخلات في حماية قوم أشداء يدفعون عنها العدوان»[32] .

يظهر الشاعر عند الوصف متأثر بالطبيعة . وهذا حال معظم الشعراء . فقد استمد معجمه اللفظي منها جاعلا إياها تشاركه الفرح والحزن والهموم.

أما الشاعر فردي بلخير فقد قال قصيدة يصف فيها رجال البادية ويتحدث عن طبيعة حياتهم الاجتماعية فيقول:

اتوحشت لحباب امعاهم قصرة سكان البادية ناس التفخار[33]

كي نروّح ليهم اضراري تبرا ونشّهي في أماكل هي الخيار[34]

واش توصف ما توصفهم هدرة يعجز عقلي عما ترى الابصار[35]

القهوة اصفّاي اطباع القصرة وسامها التاي بروايح فوّار

وافناجل فرفور في سينية حمرة بين اجماعتهم أطباع القصار[36]

وابرانيس الصوف لعضاهم سترة والخيمة كيفاه من صنع الاشعار[37]

بيت الشعرة بلوانو حمرة عجبوني سكانها ناسو أحرار

رجّالة زينين توزن للهدرة تراهم جملة اتقول أطيار

وصف الشاعر في هذه الأبيات الحياة الاجتماعية لأهل البادية وما بينهم من تآلف، ذاكرا طباعهم البسيطة وما يستعملونه في حياتهم اليومية من مأكل ومشرب، ليختتم حديثه عنهم بمدح متمثل في تشبيههم بالطيور الكاسرة الجارحة.

خاتمة: لقد حاولنا تتبع مسار بعض الشعراء الشعبيين في استعمالهم لمفردات الطبيعة الذي كان يزدحم بها شعرهم ، ويضج بوحا بالجمال والغنى ، ورأينا كيف اتسع القاموس اللفظي عندهم، والتي نقلت إلينا شحنات مشاعرهم وأحاسيسهم ، مما جعلهم يكتبون سحرا ، له أبعاده الفكرية والعلمية ، وقد زاوج هؤلاء الشعراء بين الحسي والمعنوي بغية الوصول إلى صورة شعرية ذات تجسيد جمالي فني متميز ، بفضل الطبيعة التي أدت دورا وظيفيا في تشكيل الصورة ، وخلع الصفات البشرية على هذه الطبيعة الصامتة حيث غدت النساء نخلات طوال ممتلئة سعفا و ثمرا نظيراً ، ما دفع المتلقي إلى عملية التصور الفني التي يقوم بها لتخيل عنصر الجمال الكامن في ذلك الشيء، والأمر نفسه حدث عندما خلع الشعراء الصفات البشرية على الطبيعة المتحركة، وقد دل ورود الطبيعة في الشعر الشعبي على ثراء النفوس روحيا ، ، فاتفقت مع أحوالهم النفسية ، كما لاحظنا في أغلب الشواهد التي أوردناها بروز عنصر الطبيعة التي ملكت الشاعر و أسرته في أحضانها ، ولم يستطع التجرد من تأثيرها أو يبتعد عنها وعن جوّها ، و السر في ذلك . دون شك . يعود إلى نوعية التعامل معها ؛ و هذا ما يجعلنا نقول بأن الوصف عند شعرائنا كان مرتبطا

ببيئتهم ووجدانهم، و من ثم جاء مبثوثا في جميع الأغراض ، إذ لا تستقيم الصورة الشعرية بدونه.

وحتى نبتعد عن لغة النسيان ولا نكون من الذين قال فيهم المستشرقون ومنهم هانس ستيم الذي قال: (إن العرب المغاربة لم يهتموا إلا قليلا بتراثهم الشعبي في شعره ونثره رغم أنهم يملكون إنتاجا أدبيا رائعا، لذلك فإن الكثير من هذا الإبداع خصوصا منه الشعر سينتهي به الأمر إن عاجلا أو آجلا إلى الضياع في أعماق محيط النسيان)، يبقى الباب مفتوحًا أمام الباحثين والدارسين لمحاولة استكناه أسرار قصائد الشعراء الشعبيين، الذي يعطي صورة عن حياتهم وشعرهم.

الهوامش:

[1] نوفل، سيد،1978، شعر الطبيعة في الأدب العربي، القاهرة، دار المعارف، ط02، ص: 33.

[2] القيرواني، ابن رشيق، د.ت، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح: محمد عبد الحميد، بيروت، دط، الجزء 02، ص: 294.

[3] قطب، سيد ،1993، النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، القاهرة، دار الشروق، ط7، ص: 148.

[4] القيسي، نوري حمدي،1966، الطبيعة في الشعر الجاهلي، بيروت، دار الإرشاد، د ط، ص: 116.

[5] شاو: أول . المرحول: القافلة . اسروجا: السرج . براق: لماع.

[6] الثومان: السير في أول الجماعة.

[7] خنشوش: أنف.

[8] المسلان: المؤخرة (العجز).

[9] العسكري، أبو هلال، دت، الصناعتين: الكتابة والشعر، القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح، ط02، ص: 247.

[10] بن جعفر، قدامة، د. ت، نقد الشعر، تح: عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية، د ط، ص: 70-71.

[11] اليافي، عبد الكريم، 1972، دراسات فنية في الأدب العربي، دمشق، دار الحياة، د ط، ص: 507.

[12] حاطم: يابس

[13] فزيت: نهضت . اشباح: رونق وجمال . رايم: مناسب ومتعود.

[14] اعفستيه: دسته .اتقدر واصحاح: قوي وعفي .اكرش: تمسك .لكراعك: رجلك

[15] جاح: غير متزن.

[16] دلواح: يتدلى .قطايتك: قمة النخلة.

[17] فحفاح: يطلق رائحة جميلة + زاهٍ.

[18] الصمايم: الأيام شديدة الحرارة في الصيف.

[19] انسل: ينتزع، يقط .يتمايح: يتمايل .بساسية : بهدوء.

[20] نشتي: أحب

[21] ونسني: وويؤنسني.

[22] عساف، ساسين، ،1988، الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط01، ص: 24.

[23] الدسوقي، عبد العزيز، 1960، جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث، القاهرة، جامعة الدول العربية، ط1، ج 1، ص: 453.

[24] ماكليش، أرشيباد، 1963، الشعر والتجربة، تر: سلمى خضراء الجيوسي، بيروت، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، د ط، ص: 75.

[25] دونية: قليلة الشأن .بلاك: ربما.

[26] موذية: تؤذي.

[27] امنين: من أين.

[28] فيصل، شكري، 1982، تطور الغزل في الجاهلية والإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط6، ص: 73.

[29] تايقة: متفتحة .اجنان: بستان .تتقانا: فرحة وتتمايل.

[30] لمحان: المحن .اعنانا: أمره يعنينا.

[31] تتزاقر: تتخاصم وتتنافس.

[32] البطل، علي، 1981، الصورة في الشعر العربي، القاهرة، دار الأندلس، ط02، ص: 66 .67.

[33] قصرة: السمر بالليل.

[34] اضرار: المرض.

[35] هدرة: الكلام.

[36] فرفور: واسع ومزركش.

[37] لعضاهم: أجسامهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1-البطل، علي، 1981، الصورة في الشعر العربي، القاهرة، دار الأندلس، ط02.

2-بن جعفر، قدامة، د. ت، نقد الشعر، تح: عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية، د ط.

3-الدسوقي، عبد العزيز، 1960، جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث، القاهرة، جامعة الدول العربية، ط1، ج 1.

4-عساف، ساسين، ،1988، الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط01.

5-العسكري، أبو هلال، دت، الصناعتين: الكتابة والشعر، القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح، ط02.

6-فيصل، شكري، 1982، تطور الغزل في الجاهلية والإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط6.

7 -قطب، سيد ،1993، النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، القاهرة، دار الشروق، ط7.

8 -القيرواني، ابن رشيق، د.ت، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تح: محمد عبد الحميد، بيروت، دط، الجزء 02.

9 -القيسي، نوري حمدي،1966، الطبيعة في الشعر الجاهلي، بيروت، دار الإرشاد، د ط.

10 -ماكليش، أرشيباد، 1963، الشعر والتجربة، تر: سلمى خضراء الجيوسي، بيروت، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، د ط.

11 -نوفل، سيد،1978، شعر الطبيعة في الأدب العربي، القاهرة، دار المعارف، ط02.

12-اليافي، عبد الكريم، 1972، دراسات فنية في الأدب العربي، دمشق، دار الحياة، د ط.